حول مهرجان ابي تمام بالموصل

بقلم صبري حافظ

الدور الاساسي الذي تلعبه المهرجانات والمؤتمرات في حياتنا الثقافية هو - في اعتقادي - خلق جسور من التعارف والحوار بين الادباء قبل اي شيء اخر .. فمن خلال هذه الجسور وفوقها يمكن ان تنهض بقية الادوار الاخرى التي تضطلع بها المؤتمرات من انارة لقضية او تكريس لشخصية او بلورة لمفهوم . ومن هنا يمكن ان نقيس نجاح المهرجانات والمؤتمرات وفشلها بقدر نجاحها او فشلها فيخلق هذه الجسور .. ولا يمكن ان تقوم جسور حقيقية من التعارف والحوار الا اذا توفر حد ادنى من اللغة المشتركة ، بالمعنى الاعمق والاشمل لكلمة اللغة ، بين المشاركين في المؤتمر او المهرجان .ومن هنا تجيء اهمية الاختيار وتولد معياريته . واذا أخذنا من وفد مصر لمؤتمر الادباء العرب الثامن بدمشق مثالا ، فهل يمكن انتكون هناك لغة مشتركة او حد ادنى من الحوار بين كاتب قضى زهرة شبابه في السجن لانه يؤمن بالاشتراكية ، وباشا اقطاعي سابق كان يهدي دواوينه ومسرحياته الى الملك ؟ او بين كاتبة واستاذة جامعية كانت من زعماء اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التي اقضت مضاجع الملك . وبين الشاعر الذي كان يهدهد نفس الملك ويدغدغه بكلماته الرخوة المتملقة .. ولذلك فانني كنت اقول دائما ان باستطاعتنا ان نحدس مصير مؤتمر ما بمجرد قراءة قائمة اسماء المشاركين فيه ونوعية القضايا او الموضوعات المطروحة عليهم . لانه اذا ما عرفت الاسماء تحددت امكانيات الحوار وبانت طبيعة الجسور التي ستمر فوقها بقية الحقائق والانجازات .

واذا كانت صورة المشهد العربي الراهن متحققة في كل جزئية من جزئياته ومنعكسة على كل فعل عربي له قدر منالشمول، فان المؤتمرات والمهرجانات دائما ما تكون انعكاسا زاعقا لكل تناقضات الواقع العربي ولكل تباييناته . ومن تتبع عن كثب وقائعمؤتمر الادباء بدمشق في الشهر الماضي يتأكد من هذه الحقيقة .. شاعر سقيم الذوق يذهب من مصر الى سوريا وكلا البلدين مبتهج بافراح الاتحاد ليذكر الشعب السوري بجنازة الانفصال . يتصدى له شاعر اخر من فلسطين ويذكره بتاريخه القديم ومدائحه المسهبةقبل عشرين عاما في الملك المصري المخلوع . وكأنه يقول له وانت تذكر السوريين بمرارة الانفصال الم يطف فوق سطح روحك الآسنة تاريخك المخزي القديم ؟ صورة اخرى ، رئيس وفد ليبيا الذي طلب من المؤتمر السابع للادباء في بغداد ارسال برقية تأييد للسنوسي يطلب من المؤتمر الثامن ارسال برقية تأييد للقذافي ولا يخجل .. صورة ثالثة .. الندوات المضادة التي كانت تعقد في نفس الوقت الذي تعقد فيه امسيات المؤتمر الشعرية لتسرق الجمهور او الاضواء .. او وهذا هو الاهم لنؤكد اننا ما زلنا برغم كل الشعارات امة مجتزأة ومقتطعة ومقسمة ومنقسمة على بعضها البعض .. كل هذه الصور وغيرها كثير تؤكد ان صورة المشهد العربي الراهن دائما ما تلقي بوطأتها على كل المهرجانات والمؤتمرات والمنتديات وكل ما شابه ذلك من نشاطات .

كان ضروريا ان اكتب هذه المقدمة الطويلة قبل ان ابدأ حديثي عن مهرجان ابي تمام واقول انني سعيد بنجاح مهرجان ابي تمام .. بانفلاته من الانشوطة التي تحتم علىكل مهرجان او مؤتمر ان يكون صورة مصغرة لكل تناقضات الواقع العربي وكل تبايناته .. بقدرته على اختيار وجوه شابة واصيلة استطاعت ان تخلق جسورا من الحوار مع الحركة الادبية الحية في العراق بتياراتها المتعددة ووجهها التقدمي الاصيل . فسعادتي بالمهرجان ليست وليدة نجاحه الكامل بقدر ما هي بنت الظروف الغريبة التي تولد فيها المهرجانات وتنعقد معها المؤتمرات في عالمنا العربي والتي يشكل مهرجان ابي تمام بداية التملص منها وتجاوز عثراتها المزمنة . تجاوزها منذ اللحظة الاولى للاعداد له ، منذ ان نبذ الشكل التقليدي واستعاض عنه بأسلوب جديد في اختيار المشاركين ودعوتهم . فلم يلجأ الى الجهات الرسمية يطلب منها ان ترسل ((مندوبيها)) الى المهرجان بل اعتمد المشرفون عليه على معرفتهم بالحركة الادبية العربية واختاروا منها مجموعة من الشخصيات الاصيلة ومن الوجوه الجديدة على المؤتمرات والمهرجانات لا على الحركة الثقافية ووجهوا اليها دعوتهم .. ولو قيض لكل من دعي الى المهرجان ان يحضره لجمع المهرجان خير الوجوه الثقافية في عالمنا العربي ، ولبلور مزايا هذا الاسلوب الجديد على اكمل وجه .

وقد وجهت وزارة الاعلام العراقية دعوتها لحضور هذا المهرجان الى عدد كبير من الكتاب والشعراء العرب للمشاركة في الاحتفال بالذكرى الالفية للشاعر العباسي الكبير حبيب بن اوس الطائي المعروف بأبي تمام ، ولم تكن تهدف من ذلك كما يقول الاستاذ عبد الجبار داود البصري في افتتاحية العدد الاول من جريدة المهرجان الى احياء الادب الكلاسيكي والاحتفاء بالاموات ، ولكنها هدفت من ورائه الى تكريم الحركات التجديدية في الفن والثقافة باعتبار ان

اباتمام كان مجددا كبيرا في تاريخ الشعر العربي . وبسبب ذلك عد خارجا على عمود الشعر . ولكي يدرك المجددون الاحياء ان الاعتراف بمكانتهم ومنزلتهم آت حتى ولو بعد حين من الدهر .
ثانيا : ان الذكرى الالفية لابي تمام ليست احتفالا بالاموات بعد ان مرت عليهم عشرات القرون ولكنه مناسبة من المناسبات التي يصطنعها الاحياء لكي ينشطوا فيها ويلتقي احدهم بالاخر ويتدارسوا ، امور حياتهم .. ثالثا : كان ابو تمام شاعرا عربيا اصيلا . وغالبية المراجع القديمة لا تذكره الا مقرونا بلقبه الطائي . ولكن بعض الدارسين المعاصرين حاولوا نفيه عن عروبته الى مناخ اعجمي غريب عنه.. وكان هذا الفعل جزءا من الحملة التي تتعرض لها العروبة بتجريدها من امجادها . وعليه فان الاحتفال بابي تمام يمثل جزءا من نشاط العروبة للوقوف بوجه الحملات العدائية الظالمة » هذه هي الاسس التي بني عليها المؤتمر والاهداف التي رمى المشرفون على تحقيقه الى بلوغها فهل حققها المؤتمر كاملة ؟ .. وما هي اوجه القصور فيه ؟

حتى نجيب على هذا التساؤل علينا ان نبدا القصة من اولها كما يقولون .. فنقول اقيم في الموصل ، وهي المدينة التي قضى بها ابو تمام اخر ايامه ومات ودفن فيها ، من ١١ الى ١٤ ديسمبر الحالي مهرجان ادبي للاحتفال بالذكرى الالفية لابي تمام . واقيم المهرجان تحت شعارين كبيرين . اولهما شعار له طابع سياسي ودعائي هو (الشعر للمعركة) والاخر هو البيت الذي يفتتح به ابو تمام قصيدته الشهيرة في فتح عمورية والذي يقول فيه :

السيف اصدق من انباء من الكتب : في حده الحد بين الجدواللعب

وهما شعاران قادران على اثارة الكثير من قضايانا الراهنة وعلى استقطاب اهم عناصر رؤية ابي تمام للشعر والحياة . ولذلك كانا المحور الذي دارت حوله اغلب قصائد المهرجان بالرغم من ان جل هذه القصائد قد كتب قبل وفود الشعراء الى المهرجان وقبل معرفتهم لشعاره . وقد لبى الدعوة للمشاركة في هذا المهرجان الالفي المتاخر عن موعده بكثير عدد كبير من الكتاب والشعراء من مصر ولبنان والكويت واليمن والمغرب وسوريا . بالاضافة الى رهط من شعراء الموصل المبتدئين وعدد كبير من الكتاب والشعراء العراقيين .

وقد اتيح للمشاركين في المهرجان ومعظمهم مشتعل بالرغبة في المعرفة ان يذرعوا العراق من النجف جنوبا حتى الحضر شمالا وان يشهدوا وان يشهدوا بابل القديمة والنمرود والحضر الى جوار المشهد اليومي المعاصر في النجف وكربلاء ، واتيح لهم ان ينصتوا الى لغة الاحجار والنقوش وهي تروى قصة اسد بابل اوتشي ببعض ما دار في ايوان كسرى او في قعله سنحاريب وتحكى الاسلوب الذي عاش به العراقي في الحضر القديمة . واتيح لبعض منهم ان يشهد حقيقة المشهد الثقافي في العراق .. وكنت واحدا من القلائل الذين حرصوا على ان يزوروا مجلة (الثقافة الجديدة) وجريدة (التآخي) ثم جريدة (الثورة) وهي بالترتيب المنابر المعبرة عن رؤى الشيوعيين والاكراد والبعثيين في العراق ، وعلى ان يسمعوا للمشرفين عليها ، ويشاركوا في بعض نشاطاتها . فيدون التعرف على هذه المنابر كاملة يصعب القول باننا قد تعرفنا حقيقة على واقع الحركة الثقافية الحية في العراق او على تياراتها المتعددة، وهي تيارات تتسم بطابع تقدمي واضح . يمكننا من خلالها ان نتعرف على تفاصيل الصورة التي يعيش ويفكر بها العراقي اليوم ، كما تعرفنا من خلال زيارة المناطق الاثرية في نينوي والحضر وبابل وسامراء وطاق كسرى على الطريقة التي عاش وفكر بها العراقي القديم . واذا كان المهرجان قد اتاح لمجموعة من المثقفين العرب التعرف على واقع الحياة الثقافية في العراق والحوار مع تياراتها والانصات لاصواتها المتنوعة فضلا عن تاريخها القديم وآثارها ومدنها الدارسة فان هذا في حد ذاته شيء كبير .

لكن المهرجان في الواقع فعل اكثر من ذلك ... اذ قدم في امسياته الثلاث التي اعقبت امسية الافتتاح الاولى مجموعات من القصائد الشعرية .. وقدم في بعض اصابيحه عددا من الدراسات كما قدم مجموعة من المطبوعات .. واذا بدانا بالحديث عن المطبوعات فلانني احب ان اشيد بالجهد العلمي الممتاز الذي قدمه كوركيس عواد وميخائيل عواد في كتابهما (ابو تمام الطائي : حياته وشعره في المراجع العربية والاجنبية) .. وهو عمل ببليوجرافي جيد برغم هنات التصنيف والتبويب .. اذ تتبع كل آثار ابي تمام المخطوطة والمطبوعة في مختلف المكتبات العامة والخاصة في شتى البلدان ما وسعه الجهد .. ثم قدم قائمة ضافية بكل المراجع العربية

دار الآداب تقدم

ابراهيم ناجي

قصائد

اختارها وقدم لها

أحمد عبد المعطي حجازي

صدر حديثا ٢٠٠ ق . ل

القديمة التي تناولت اعمال ابي تمام او حياته بالايجاز او التفصيل، محددا الصفحات التي تناولت ذلك في كل مرجع . وما ان فرغ من الكتب القديمة حتى قام بنفس العمل مع المراجع العربية الحديثة ومع المراجع الاجنبية .. هذا فضلا عن التمهيد لهذا العمل بعرض دقيق في سطور موجزة لحياة ابي تمام منذ ميلاده في قرية جاسم الواقعة بالقرب من هضبة الجولان السورية فيما بين دمشق وطبرية عام ١٨٨ هجرية المقابل لعام ٨٠٤ ميلادية حتى وفاته بالموصل عام ٢٣١ هجرية المقابل لعام ٨٤٦ ميلادية ... هذا العمل العلمي الهام هو اهم مطبوعات المهرجان في اعتقادي . وقد كان الاولى بوزارة الاعلام بدلا من ان توزعه على المشتركين ليلة افتتاح المهرجان ان ترسله الى من وجهت اليهم الدعوة قبل ميعاد المهرجان بشهر على الاقل .. لان ذلك الكتاب كان سيكون مفتاحهم الى معرفة ابي تمام ودليلهم الى بحوث حقيقية عنه . ييسر لمن اراد الكتابة عن ابي تمام التعرف على المصادر ويوطىء له الارض . ولو حدث ذلك فربما جاءت ابحاث المهرجان افضل وانضج مما جاءت عليه .

فالى جانب البحوث التي القيت في المهرجان كانت هناك اسهامات جامعة الموصل بعددين من دورياتها خصصتهما لهذه المناسبة . اولهما عدد خاص من مجلة (الجامعة) كرست اكثر من نصف صفحاته لعدة دراسات سريعة حول ابي تمام . والاخر عدد خاص من مجلة (آداب الرافدين) التي تصدرها كلية الآداب بجامعة الموصل كرس برمته لعدة دراسات اكثر عمقا وتخصصا عن ابي تمام .. لكنها ظلت جميعا هي والابحاث التي القيت في اصابيح المهرجان تدور في اطار دائرة الجزئيات التقليدية والمعلومات المكرورة التي سبق ان قتلت درسا وترديدا . وافتقدنا فيها الدراسة الجديدة التبي تعيد قراءة بعض قصائد ابي تمام الهامة وفقا للمناهج النقدية الحديثة فتضيىء معرفتنا بابي تمام وبعصره وبالشعر وبالحياة . او الدراسة التي تقرأ ديوانه الكبير برؤية جديدة ثم تطلع علينا باكتشاف نقدي باهر يقتلع بعض المسلمات القديمة ويزرع مكانها حقائق جديدة . فتجعلنا نحس بعدها باننا عرفنا ابا تمام بطريقة افضل ، او اننا كنا لا نعرفه حقا قبلها . او الدراسة التي تستخرج نظريته الشعرية ورؤاه الفكرية من خلال استقرائها لمنطلق اختياراته في (ديوان الحماسة) وفي (الوحشيات). هذه الانواع الثلاثة من الدراسات هي التي كانت جديرة بمهرجان لابي تمام يقام في الثلث الاخير من القرن العشرين ، وهي التي افتقدناها في دراسات المهرجان ومطبوعاته .. لكن عزاءنا الوحيد هو هذا الجهد العلمي الذي قدمه المهرجان من خلال العمل البيبليوجرافي الذي اشرت اليه منذ قليل .

تبقى بعد ذلك القصائد التي القيت في امسيات المهرجان الثلاث . وهي قصائد وفيرة العدد ضئيلة الحصاد ، لا ينتمي منها الى جوهر الشعر بحق غير عدد قليل . فقد القيت في امسيات المهرجان عدة قصائد من الشعر العمودي التي اقنعتنا بان ابا تمام اكثر معاصرة من كل الشعراء التقليديين الذين القوا قصائدهم بالمهرجان .. اقول اكثر معاصرة لا اكثر شاعرية لانني اذا قارنت بين شاعريتهم وشاعرية ابي تمام ففي ذلك اجحاف كبير بالرجل ونحن نحتفي به فلا مجال للسخرية به وادخاله في مقارنة مع هؤلاء الناظمين . لا نستثني منهم سوى الشاعر اليمني عبدالله البردوني في جانب المعاصرة لا في جانب الشاعرية لان قصيدة البردوني تستمد كل تالقها الشعري من روح ابي تمام ومن لغته واسلوبه الشعري . ومع هذا او بسببه كان عبدالله البردوني مفاجاة المهرجان بحق . واستطاعت قصيدته (ابو تمام وعروبة اليوم) التي انشاها على غرار قصيدة ابي تمام البائية الشهيرة في فتح عمورية ان تكون محور احاديث المهرجان لوقت طويل .. اذ استطاع فيها ان يبلور بتمكن وشاعرية لا بأس بهما الكثير من القضايا العربية . وان يلمس عددا من الاوتار الحساسة التي سرعان ما استجاب لها الجمهور ..

ماذا ترى يا ابا تمام هل كذبت
أحسابنا او تناسى عرقه الذهب

عروبة اليوم اخرى لا ينم على
وجودها اسم ولا لون ولا لقب

تسعون الفا « لعمورية » اتقدوا
وللمنجّم قالوا اننا الشهب

فيما انتظار قطاف الكرم ، ما انتظروا
نضج العناقيد لكن قبلها التهبوا

واليوم تسعون مليونا وما بلغوا
نضجا وقد عصر الزيتون والعنب

تنسى الرؤوس العوالي نار نخوتها
اذا امتطاها الى اسياده الذنب

بهذه المقابلة التمامية بين ما جرى في عمورية حينما هب الجيش دون انتظار كنبوءة المنجمين الى نضج الكروم وقطاف عناقيده، وبين ما يجري الان من انتظار مرير عصر فيه كل شيء حتى الروح العربية .. استطاع البردوني ان يقدم شيئا من الشعر الناضج المعتمد على الصورة برغم عموديته .. وتتالق صوره الشعرية في المقطع الذي يتحدث فيه عن اليمن ..

اما قصائد الشعر الحديث فلم يتميز منها سوى قصيدتين في الامسية الاولى هما (مرثية للعمر الجميل) لاحمد عبدالمعطي حجازي و(قلبي على وطني) لمحمد الفيتوري .. وقصيدتان في الامسية الاخيرة هما قصيدة خليل خوري التي بلا عنوان وقصيدة محمد عفيفي مطر (وشم النهر على خرائط الجسد) .. اما الامسية الوسطى التي ملأها شعراء الموصل نظما وفريضا فلم يتميز بينها شيء ذو بال .. اللهم سوى بعض الومضات المرهصة بشاعر وشيك والتي تكورت لثلاث مرات طوال الامسية الحافلة بعشرات القصائد والشعراء .

وفي الامسية الاولى ايضا كانت قصيدة نزار قباني (قصيدة اعتذار لابي تمام) كاغلب شعر نزار قباني الاخير مباشرة ونثرية

وزاعقة ، تتلاعب بالكلمات وتنظم ما يتداول على المقاهي نثرا .. استمع اليه وهو يقول :

امير الحرف سامحنا
فقد خنا جميعا مهنة الحرف
وارهقناه بالتشطير والتربيع والتخميس والوصف
ابا تمام ان النار تاكلنا
وما زلنا نجادل بعضنا بعضا
عن المصروف والممنوع من صرف
وجيش الغاصب المحتل ممنوع من الصرف
وما زلنا نطقطق عظم ارجلنا
ونقعد في بيوت الله ننتظر
بأن يأتي الامام علي .. أو يأتي لنا عمر
ولن يأتوا
فلا احد بسيف سواه ينتصر
لذلك ايها السادة ..
ساجمع كل اوراقي واعتذر

بهذا الاسلوب النثري وبهذه الكلمات المكرورة يقدم نزار قباني فهمه للشعر وللواقع معا ويستمر في قصيدته على هذا المنوال حتى يختمها بكلمات كان الاجدر به ان ينصت اليها جيدا والا لرأى انها وكأنها موجهة اليه او خير واصف لحاله ..

لماذا شعرنا العربي قد يبست مفاصله
من التكرار واصفرت سنابله
وقل لي ايها الشاعر
لماذا الشعر حين يشيخ لا يستل سكينا وينتحر

الا يحس نزار قباني بان على شعره بعد هذه القصيدة وسابقاتها ان يستل هو الاخر سكينا وينتحر ؟ فقد يبست صوره وجفت تراكيبه حتى اصبحت كالعملة الباهتة من كثرة التداول والاستعمال ، وهزل بنيانه فلم تعد القصيدة سوى مجموعة من الاستطرادات النثرية والافكار المصنوعة وفقدت بذلك الدور الاول للشعر باعتباره ريادة ونبوءة ورؤيا لا مجرد تعليق على ما حدث ويحدث كتعليقات المثرثرين في المقاهي .

كنت اود بعد ذلك ان يكون لدي متسع من الوقت للحديث عن قصيدة محمد الفيتوري الشجاعة الفوارة بالصور المسجلة لتمرد الشاعر الابدي على كل سلطة غاشمة . وللحديث عن قصيدة حجازي التي تروي قصة جيلنا بأكمله مع الحلم والخديعة ومكابداته الرهيبة وهو يرى مدائن الحلم تتهاوى وتقطع كما تهاوت الاندلس مع ملوك الطوائف ثم ميلاده الجديد وسط نيران المعاناة متململا من قبضة الخوف والغواية . وللحديث عن قصيدة خليل خوري التي تتناول نفس القضية ولكن بأسلوب مغاير ومن خلال توهج انفعالي تتألق فيه الصور بالعنف والحركة . وللحديث عن قصيدة محمد عفيفي مطر التي تخلق كوناً خاصا بها لا يمكن الحديث عنه الا من داخل صوره وقيعانه وبمنطق رؤاه واحداثه .. لان كل قصيدة من هذه القصائد الاربع عالم كامل من الرؤى والرموز والاسرار لا يمكن للناقد ان يوفيه حقه الا اذا افرد له دراسة ضافية مستقلة ، واتمنى ان افعل ذلك في وقت قريب وخاصة بمرثية للعمر الجميل ..

القاهرة

صبري حافظ

الموت السعيد

رواية جديدة لم تنشر من قبل تاليف
البير كامو

صدرت هذه الرواية منذ شهرين في باريس فاحتلت بسرعة رأس قائمة انجح الكتب في هذه الفترة . ولم يسبق لهذه الرواية ان نشرت من قبل ، وقد استخرجتها زوجة البير كامو من اوراقه . وبالرغم من ان هناك شبها في الاسماء بين بطلي « الغريب » و«الموت السعيد » فهذه الاخيرة تختلف عن تلك كل الاختلاف ، وموضوعها هو البحث العنيد عن السعادة ، ولو كان ثمن ذلك ارتكاب جريمة. واحداث الرواية تتناول تجربة شاب يعاني مصاعب كثيرة على صعيد الفقر والمرض والحب والرحلات .

ترجمت الرواية عايدة مطرجي ادريس

صدر حديثا

الثمن ٤٠٠ ق . ل .